صدق الخبر معياراً فنياً
في شعر الرثاء
بين أبي الطيب وأبي العلاء

الباحث
الدكتور صالح احمد رشيد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ما زلت أتأمل في البلاغة، وسر الجمال الفني فيها. وقد كان جلُّ اهتمامي في الجانب التطبيقي؛لأنه الغاية التي ينشدها من يسعى إلى إنشاء الكلام،وحسن الصياغة له، على نحو يؤدي إلى إقناع المتلقي بما يسمع فضلا عن استجابته له، وتفاعله معه.

حتى استوقفني (صدق الخبر) أحد أبواب علم المعاني في البلاغة قاصداً فيه الجانب البلاغي، والأدبي، مما يعين في نظم الشعر، وتشكيل الصورة. فكان أن وجدت هذا الباب من المعايير الفنية التي يمكن أن يلجأ إليها الباحث في البلاغة العربية.

ولقد لفت انتباهي حسن استعمال أبي الطيب له. وأحسبني قد أفدت من اعتماده في نظم الشعر في بعض أبيات احتذيت فيها طريق أبي الطيب. كنت أنظمها للتسلية من الهموم، والأوجاع. وما أكثرها في يومنا هذا.

ولما كان من الضروري أن أضع حدوداً لبحث اطرح فيه هذا الفهم في بعديه: النظري، والتطبيقي. فقد اخترت علمين من شعراء العصر العباسي هما: أبا الطيب، وأبا العلاء، وقد كان شعر الرثاء هو الميدان الذي جرت فيه التجربة على افتراض توافر الصدق الشعوري في هذا الغرض.

ومن ثمَّ فقد جاء هذا البحث في مبحثين:

تناول المبحث الأول صدق الخبر بين التنظير والتطبيق عند البلاغيين، فاعتنى المطلب الأول منه بالتنظير عند البلاغيين القدماء والمحدثين لينتهي به الأمر إلى وضع مفهوم نظري راعى الباحث فيه الفاعلية النفسية للصورة الشعرية، والفاعلية الدلالية.

واهتم الثاني بالتطبيق لهذا المفهوم في الشعر العربي ولاسيما الشعر العباسي. بدءا ببشار بن برد وما أثير عن تجديده في الصورة الشعرية حول دقة وصفه لليل بأساليب مختلفة.

أما الثالث فقد عالج (صدق الخبر) في الأغراض الشعرية على نحو جنح فيه الباحث إلى الإيجاز والإجمال من غير إطناب، ولا تفصيل.

أما المبحث الثاني فقد اعتمد صدق الخبر معياراً فنياً في شعر الرثاء بين أبي الطيب،وأبي العلاء بوصف شعر الرثاء هو الميدان التجريبي للمفهوم النظري.

فتناول المطلب الأول: رثاء الأم بين الشاعرين. وتعرض المطلب الثاني لرثاء الحبيبة والأب، أما الثالث فجاء ليبحث في رثاء المناسبات.

وإني إذ أضع هذا البحث بين يدي القاريء الكريم، أرجو من الله التوفيق والسداد فيما سعيت واجتهدت، فما توفيقي ولا اعتصامي إلا بالله انه نعم الناصر والمعين.

المبحث الأول

صدق الخبر بين التنظير والتطبيق عند البلاغيين

المطلب الأول: التنظير البلاغي

اعتاد البلاغيون القدماء أن يعرفوا الخبر بأنه ما كان "لنسبته خارج (واقع) تطابقه أولا تطابقه"[1] على حد قول القزويني، وهو عند المحدثين أيضاً "ما يحتمل الصدق والكذب لذاته"[2]. أما كيف يتحقق الصدق في الخبر من الناحية البلاغية ؟ فإنَّ أحداً لم يسعَ إلى الإجابة عن ذلك على نحو شافٍ، أو مرضٍ. وقد بقيت بالقارئ حاجة إلى معرفة المقصود بـ (الواقع) وكيف يمكن أن يكون الكلام مطابقاً له، أو مختلفاً عنه ؟ وما علاقة ذلك بالبلاغة بوصفها قواعد يمكن أن تعين المنشئ على التعبير، وحسن الصياغة، ودقة التصوير؟

ولئن كان للقدماء العذر في الإبتعاد عن التفصيل في هذا الموضوع، فبنا حاجة اليوم إلى ذلك التفصيل، والنظر إلى الموضوع من زوايا عدة يخدم الوجهة البلاغية، ويوسع دائرة البحث فيها، ويزيل ما قد يعتورها من غموض أو سوء فهم.

فإذا كانت البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، على وفق

---

١ الإيضاح في علوم البلاغة: ١٧.
٢ جواهر البلاغة / أحمد الهاشمي: ٣٦.

ما اتفق عليه البلاغيون وعلى أساس القاعدة التي تقول:"إنَّ لكل مقام مقال" و"لكل حادث حديث"؛ فهل يعني ذلك أنَّ الواقع الوارد في تعريف الخبر يساوي من حيث الدلالة (مقتضى الحال). وإذا كان هذا هو المراد؛ فإنه من المستبعد على الفهم أن نضرب أمثلة عن صدق الخبر وكذبه من مثل قولنا: "العلم نافع"[٣]. وإن كانت الغاية هي التبسيط؛ إذ قلما يلجأ البلاغي إلى مثل هذه العبارة وأضرابها من العبارات التي تستعمل في تبسيط المثال، وهي في الوقت نفسه تبعد القارئ عن المقصود.

من ثم فقد ارتأى الباحث أن ينطلق من المقولة السابقة: إنَّ مقتضى الحال يساوي من الناحية الدلالية (الخارج، أو الواقع) المقصود في تعريف الخبر آنفاً؛ لينتهي إلى الزعم أن البلاغة قد جعلت من صدق الخبر أو كذبه معياراً فنياً يحسن السكوت عليه.

وسيدفعنا ذلك بالضرورة إلى إعادة النظر في اختلاف البلاغيين في تقسيم الخبر من حيث الصدق والكذب على غرار ما نعرف من آراء للنَّظَّام، والجاحظ، ورأي جمهور البلاغيين.[٤] فإن مثل هذا التقسيم يصح للحقيقة العلمية أو الشرعية لا البلاغية أو الأدبية[٥].

يرى الباحث أن لفظة (الخارج أو الواقع) في تعريف الخبر

---

٣ ينظر: المصدر نفسه: ٣٦.

[٤] ينظر:البلاغة والتطبيق /د.احمد مطلوب,د.حسين البصير: ١٠٤.

[٥] ينظر:الصدق الفني في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري /د. عبد الهادي خضير نيشان: ٢٤,ومابعدها:دار الشؤون الثقافية,بغداد,ط١ ,٢٠٠٧م.

تتوزع على قسمين، إذا ما أريد تحديدها في هذا الباب، وهما:الواقع النفسي، والواقع البيئي.

أولاً: الواقع النفسي:

وهو الحال التي يكون عليها القائل في التجربة الشعورية، أو الانفعالية في لحظة إنشاء الكلام. وتختلف أحوال المنشئين على وفق أوضاعهم النفسية في تلك اللحظة فرحاً، أو حزناً، أملاً أو يأساً، تفاؤلاً أو تشاؤماً ... إلخ.

وتظهر هذه الحال النفسية في صيغة ألفاظ، وصور تدل عليها قد لا تعكسها تماماً، وإنما تعكس ظلالاً منها. ذلك أن الانفعال والشعور لا يُدركان، واللغة المعبرة عنهما مُدْرَكة، فمحال أن يتساويا، وإنما يتقاربان أو يتدانيان إلى حد ما.

ثانياً: الواقع البيئي:

تتحكم في هذا الواقع (الحادثة) أولاً أو (المقام) التي وقعت لمنشئ الكلام، فلا يكون المنشئ صادقاً وهو يصف حالاً مغايرة لما حدث في واقع الأمر، على غرار ما نجد من أمثلة تُضرب عن حسن التعليل الذي يلجأ فيه المنشئ إلى إنكار الحقائق والوقائع.

وتؤثر البيئة في هذا الواقع تأثيراً متفاوتاً، فللبيئة أثرها في تصور المنشئ أو القائل لواقعه؛ إذ ليس من المعقول أن يكون الكلام

غير مألوف في بيئته التي قيل فيها، بل لا بد أن يكون أثر البيئة واضحاً.

وعوامل البيئة كثيرة، منها: الدين، العادات، التقاليد، الأعراف، الجنس. فضلاً عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

ومن ثم فإن تصور الباحث لـ (صدق الخبر) أو (كذبه) إنما يندرج تحت هذا الباب الواسع، الذي يجعل منه معياراً فنياً يراعي فيه القائل دقة التعبير عن وضعه النفسي، وعن واقعه الذي يعيش فيه؛ذلك أن وظيفة البلاغة هي الإقناع ـ كما هو معروف ـ ولا يمكن أن يتم الإقناع ما لم تراعَ هذه الأمور على نحو دقيق قد تدفع بالمنشئ إلى الإبداع لمن يستطيع أن يغور في أعماق نفسه، ويدرس بيئته عن طريق معرفة أفكار ناسها، وأعرافهم، وتقاليدهم، وعاداتهم، فضلاً عن عقائدهم.

ولما كان من المتيسر أن نجد خبراً صادقاً عند حذاق الكلام،ومن المتعذر أن نجد خبراً كاذباً من جميع النواحي؛ فإن النظرة البلاغية إلى هذا الموضوع ينبغي أن تكون متفاوتة بين الصدق والكذب من الناحية البلاغية في أقل تقدير، فيقال: هذا صدق خبره، وذاك كان أقل صدقاً، لهذا السبب أو ذاك. فإن القول: إن هذا الخبر كاذب، يعني انعدام القول، وهذا محال.

المطلب الثاني: التطبيق البلاغي لصدق الخبر

يبقى التنظير فقيراً محتاجاً، حتى يتم إغناؤه بالتطبيق. فلنذهب إلى ديوان بشار بن برد، ولننظر حول ما قيل عن عرضه لصورة الليل معارض مختلفة[6]؛ ليتبن لنا أن ذلك كان على وفق وضعه النفسي، والبيئي ومدى دقته في التعبير. أي: أننا نجعل من صدق الخبر معياراً فنياً للنظر في شعر بشار من هذا الباب.

ففي قوله:

لم يطل ليلي، ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيفٌ ألمّ[7]

جاء هذا الشعر معبراً بدقة عن الواقع؛ ذلك أن الليل في حقيقته لا يطول أو يقصر، لكن الحالة النفسية التي يمر بها الإنسان هي التي تجعل منه طويلاً أو قصيراً. فليل بشار كان طبيعياً لم يطل من الناحية الزمنية، ولكنه هو الذي لم ينم لما ألم به في هذا الليل من طيف عزيز يريد بقاءه، ويشعر بالسرور الغامر لهذا البقاء الذي أذهب الإحساس بطول الليل، فنجد أن الشاعر قد وُفِّق إلى حد بعيد في إصابة صدق الخبر.

أما قوله:

النجم في كبد السماء كأنه أعمى تحير ما لديه قائد[8]

---

[6] ينظر: طبقات الشعراء / ابن المعتز (ت ٢٩٦ ه): ٢٦. والفن ومذاهبه في الشعر العربي / د.شوقي ضيف: ١٥٥.

[7] ديوان بشار: ١٧٢/٤.

فمن الناحية الواقعية لم يكن بشار مبصراً؛ فأنى له أن يرى النجم في السماء ؟! فلنا أن نقول: إن الشاعر قد كذب؛ إذ ادعى الإبصار، وهو خلاف الحقيقة. ولكن قد يشفع له أنه استقى هذه الصورة من مرجعيته الشعرية بفضل سعة حفظه وثقافته أو مما سمعه من الناس من بيئته، فجاءت صورته مطابقة لواقع هذا النجم.

وجاء الشطر الثاني ليعبر عن الحالة النفسية لبشار. فالنجم الحائر كالأعمى، إنما هو بشار بن برد؛ فكأنه أراد أن يقول: إنني بلا قائد يأخذ بيدي حائر لا أدري ماذا أفعل، وللتعبير عن ذلك وجد صورة معادلة لهذا الإحساس وهو (النجم في السماء) معبراً عن إحساسه بالغربة والحيرة.

أما في قوله:

خليلي ما بال الدجى ليس يبرح

وما بال ضوء الصبح لا يتوضح

أضل الصباحُ المستنير طريقَهُ ؟

أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟[٩]

فالليل هنا طويل ثقيل، يرغب بشار في ذهابه ليهنأ بالنوم،فصدق الخبر عنده في التعبير عن حالته النفسية الراغبة بالنوم، الضائقة بالهموم المؤرقة، وما ترتب على ذلك من الإحساس بطول الليل،وبُعْد

---

[8] ديوانه:١/٧٨ .

[٩] ديوانه:١/٥٣

الصباح.

وفي قوله:

أقول وليلتي تزداد طـــولاً:

أما لليل بعدهم نهـــار؟!

جفت عيني عن التغميض حتى

كأن جفونها عنها قصارُ[10]

نجد عند الوقوف على القصيدة كاملة ما يشي أن الشاعر كـــان في حالة سرور، وأنه أصاب في ليله أشياء قريبة إلى نفســـه، ممـــا جعل إحساسه بالليل يعبر عن تلك الحالة. فالليل قصـــير، والجفـــون كأنها قد أصبحت قصيرة حتى أنها لم تعد قادرة على التغميض. وهو يتمنى بقاء الليل وطوله لما أصابه من سرور.

لكن هذا الأمر يتعارض مع طريقة الصياغة، والتعبير، مما يشي بإخفاق الشاعر في هذين البيتين. فسؤاله (أما لليل بعـــدهم نهـــار) سؤال ينمُّ عن رغبة زوال الليل، وهو أمر يتعارض مع حالته النفسية ورغبته في بقاء الليل. ولا يُعبَّر عن حالة الســـرور بـــأن الجفـــون أصبحت قصيرة لا تقوى على التغميض وإنما يُعبَّر عن ذلك في حالة الرغبة في النوم. ولعل الإخفاق قد حصل لأن الرجل لم يكن مبصـــراً حقيقة فلم يصدق خبره؛ لأنه كان متكلفاً لهذا الأمر مدعياً له.

---

[10] ديوانه: ٨٣/١ .

المطلب الثالث: الأغراض الشعرية وصدق الخبر

إذا نظرنا إلى أغراض الشعر العربي المعروفة بمعيار (صدق الخبر) في ضوء المفهوم النظري والتطبيقي السابقين؛ فإن الحكمة تكون أقرب الأغراض في هذا المضمار؛ لأنها عملية استقراء لواقع الحياة والإنسان، فتكون أقرب إلى التقريرية. ويُعد الرثاء من الأغراض الذاتية التي تُنظم في أوقات الحزن، وله أجواؤه الخاصة باستثناء ما يحاكي به الشعراء آلام الآخرين. من غير عمق في التجربة الشعرية.

وكذلك غرض الغزل، ولا سيما الغزل العذري، ما لم يكن هذا الغزل تقليدياً، وجد الشاعر نفسه مضطراً لنظمه على غرار ما هو معروف من قول أبي الطيب:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم ؟![11]

ويكون المدح قريباً إلى (صدق الخبر) إذا كان دافعه حقيقياً،أما إذا كان صفقة بين الشاعر والممدوح فيكون أقرب إلى المبالغة،وعدم الدقة.

أما الهجاء فهو تصريف لغضب الذات الشاعرة، مما يجعله أقرب إلى الانتقام والتشفي منه إلى إصابة الوصف وتصوير الواقع. على الرغم من أن القدماء اشترطوا في ذيوع

[11] ديوانه:٤/. ٣٥٠

الهجاء،وانتشاره:الصدق،والعفة في اللفظ، أي: التمسك بالأخلاق،وهو ما يصح تسميته بالاتجاه المعتدل في الهجاء، وهو ما دعا إليه عمرو بن العلاء (تـ ١٥٤هـ) في مثل قوله:"أشد الهجاء أعفه وأصدقه"[١٢].

المبحث الثاني
صدق الخبر معياراً فنياً في شعر الرثاء بين أبي الطيب، وأبي العلاء

ارتبط الرثاء بمصيبة الموت "التي لا تدفع، والرزية التي لا ترد بكثرة الجموع ولا تمنع، والحادثة التي لا تنصرف بالفداء وإن جل مقداره، والنازلة التي لا تتأخر عن وقتها وإن عظمت في غيرها آثاره"[١٣].

من ثم فإن الواقع النفسي يكاد يكون واضحاً معروفاً في غرض الرثاء[١٤]، يتمثل في وقفة الإنسان مع نفسه في لحظة حدوث المصيبة؛ لإحساسه بزوال الدنيا، ودنو الأجل، وقرب الرحيل،والفراق للأحباب والأهل والأصحاب.

---

12 العمدة: ١٧٠/٢.
13 رثاء الأموات / النويري: ٣٦.
14 ينظر: الرثاء / د. شوقي ضيف: ٥ وما بعدها.
١٥ برد الأكباد عن فقد الأولاد / ابن ناصر الدين الدمشقي: ١٤ ـ ١٥.
١٦ صحيح البخاري: ١٠ /١٠٣. وصحيح مسلم: ٤ /١٩٢.

وجرت العادة أن "كل ذي مصيبة آخر أمره الصبر، ولكن إنما يُحمد عند حدتها، وفَوْر شدتها؛ لأن المصير الجزع إلى السلوان، ولو أقام على قبره ميته زماناً"[١٥].

وقد جاء في الحديث الشريف:"ما يصيب المؤمنَ من نصب ولا وصب، ولا همٍّ ولا حزن، ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله به من خطاياه"[١٦].

وهناك فروق فردية بين أبي الطيب الشاعر الطموح الذي خابت آماله وتطلعاته في الحياة، وبين أبي العلاء الشاعر الذي أراد إصلاح مجتمعه فاعتزله محتملاً أذى الناس وسوء عشرتهم.

وقد كان الواقع البيئي واحداً لدى الشاعرين؛ فالبيئة العربية في أواسط القرن الرابع إلى أواسط القرن الخامس كانت امتداداً طبيعياً لأية بيئة عربية أخرى تستند إلى الدين وتحكم الشرع وتلتزم الأخلاق، وتقيم وزناً للحسب والنسب القبليين، وتنظر إلى الجاه والمال الدنيويين، فضلاً عن خضوعها للاحتلال البويهي(٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ).

ولعل في كثرة الكتب التي أُلفت عنها ما يجعلها جلية ظاهرة في جوانبها كافة؛ من ثم فينبغي أن يأتي الكلام متأثراً بهذه البيئة مراعياً لها، كي يلاقي قبولاً، ويحقق شهرة، ويصيب غايته في الذيوع

والانتشار.

ولعل الباحث يسبق إلى القول: إن أبا الطيب (تـ ٣٥٤هـ) استطاع أن يتعمق أغوار نفسه وأن يعبر عنها، كما تمكن أن يستقرئ ما في بيئته من أخلاق، وعادات، وأعراف، وتقاليد، ويراعيها على نحو أفضى إلى تقديمه في النهاية على شعراء عصره، يسعفه في ذلك لغةٌ طيعة تجيبه أنى شاء.

أما أبو العلاء (تـ ٤٤٩هـ) فقد خذلته اللغة في بعض المواضع فيما أراد من معانٍ، فعرَّضه ذلك إلى سهام المنتقدين، ولأجل ذلك حصلت المفاضلة بينهما. ولعل أبا العلاء أحسَّ بأفضلية أبي الطيب؛الأمر الذي دفعه إلى تسمية كتابه الذي ألفه عن هذا الشاعر بـ(معجز أحمد).

وليس الباحث هنا في مجال الانتصار لهذا الشاعر أو ذاك، وإنما هذا إيجاز يتبعه تفصيل، لعل فيه إقناعاً يستند إلى التحليل، واستقراء النصوص من غير عجالة مكروهة، ولا تمحل بغيض. ولعل في الصفحات القادمة يتضح الدليل ويقام البرهان لمن يريد. وذلك في ضوء النصوص المتوافرة للشاعرين في الرثاء.

المطلب الأول: رثاء الأم

تستوقف الباحثَ في شعر أبي الطيب قصيدته في رثاء جدته التي يقول عنها:إنها بمنزلة أمه. يتحقق صدق الخبر في مطلع القصيدة إلى حد بعيد؛ فجاء المطلع حكمة استندت على طول تأمل في الحياة واستنتاج العبر والدروس منها، فيقول:

ألا لا أري الأحداث حمداً ولا ذماً

فما بطشها جهلاً، ولا كفها حلما[١٧]

فمن الناحية النفسية يبدو أبو الطيب في حالة استسلام للقدر،فالقدر يأخذ ويدع، بأجل وبكتاب. ويحاول أن يعزي نفسه في جدته وفقدانها عن طريق الحكمة التي غالباً ما يقولها الناس في مثل هذا الموقف فيصيب في موافقته الواقع من الناحية الدلالية أيضاً؛ ذلك أن الأقدار تجري بحكم الله وهي لا تسير إلا على وفق مشيئة الله وحكمه، وقضائه.

ولما كان هذا حالها فإن أبا الطيب يرى أن ليس من داعٍ لأن تُمدح، أو تُذم. وهو معنى لطيف ودقة متناهية في إصابة وصفه للواقع. لكن يُفَضَّل من الناحية الدينية أن يُحمد الله بعد وقوع القدر خيراً أو شراً. وترك الحمد والذم عن الأقدار، لا يعني بالضرورة أن

[١٧] ديوانه: ٤ /١٠٢.

ينصرف الذهن إلى عدم توجيه الحمد إلى الله سبحانه وتعالى؛ فإن النص يتيح لنا أن نستقرئ أن الشاعر استطاع تمييز الأشياء بدقة متناهية، فتمكن من الفصل بين القدر، وبين محدث القدر، وإن لم يأتِ على ذكر الله تعالى في القصيدة حامداً له على كل مكروه.

ولأبي العلاء قصيدتان في رثاء أمه. أما الأولى فيبدو أنه نظمها بعد وفاتها بمدة يسيرة. ويبدو أنه تذكرها في الثانية، وحنَّ إليها لما كان يلقى من نصب وألم، وغربة للروح، والمنزل والجسد، بعد مدة لم تكن قصيرة.

كان مطلع الأولى قوله:

سمعتُ نعيها صَمِّي صمامي

وإن قال العواذل لا همامِ[١٨]

فقد تحقق صدق الخبر في البيت وإن كان لا يدركه إلا المتخصص في اللغة، ممن له حظ وافر من الثقافة الواسعة. فقوله (صمي صمامي) من أمثال العرب التي كانت تُضرب لنزول داهية عظيمة، وكان أبو العلاء يستشعر ذلك، لفقدانه أمه. وقوله: (لا همامِ) من الألفاظ المبنية التي تعني أن لا يهتم كثيرا لوفاة أمه، وهو ما يقال من الناس في حدوث المصيبة لمن يعزونه، ويضم في معناه أن يصبر ويحتسب. فجاءت صورة العواذل لتعبر عن واقع الناس.

[١٨] سقط الزند: ٢٧٣.

أما القصيدة الثانية فيقول فيها: إن قلبه لا يمكن أن يخلو من مودتها، وإن حصل مثل هذا للفؤاد فهو إخلال منه، وإن جسمه يبلى في طلب أمه، وذلك شفتء له، لما يجد من شدة الشوق، وقوة الإحساس بالفراق، كما في قوله:

خلوٌّ فؤادي بالمودة إخلالُ

وإبلاء جسمي في طلابِكِ إبلالُ[١٩]

فعكس الشاعر في البيت الجانب النفسي، والواقع الذي يعبر عنه هو الواقع النفسي، وقد وُظِفت اللغة فيه على نحو سليم. أما الجانب البيئي فيبدو مخفياً للوهلة الأولى، ولكن يمكن أن نجده في الوفاء، والإخلاص اللذين دعا إليهما بيت أبي العلاء، فضلاً عن الجانب الديني الذي يعلي من شأن الأم ويوجب برَّها، والإحسان إليها.

وإذا ما عدنا إلى قصيدة أبي الطيب، ونحَّينا جانياً مبالغاته المعتادة، وفخره بنفسه في نهاية القصيدة، فنجد أن القصيدة تصل ذروتها وإثارتها العاطفية بالاستناد على المعيار الفني (صدق الخبر). فقد وُفق الشاعر إلى عكس صورة الواقع، والإحساس أو الشعور،والبيئة، مما جعل البيت مقبولاً في بيئته مرغوباً فيه، له في النفوس وقعٌ، ولدى العقلاء أُذُنٌ. كما في قوله:

وما انسدت الدنيا عليَّ لضيقها

[١٩] سقط الزند: ٣١١.

ولكن طرفاً لا أراكِ به أعمى[20]

فالدنيا ليست ضيقة، وطرفه ليس أعمى، ولكن إحساس الشاعر بفقد الأم جعل الدنيا ضيقة وطرفه كالأعمى؛ لأنه لا أحد يملأ نفسه فرحاً ولا سروراً إلا جدته. فهذا البيت أقرب إلى البيئة أثراً، وعمقاً. كأن أبا الطيب قرأ نفوس الناس عن طريق ذاته ليعبر في هذا البيت عن علاقة كل محب بحبيبه. فمطابقة الخبر جاء من الناحية النفسية والدلالية.

يلتقي رثاء أبي العلاء مع رثاء أبي الطيب ـ إذا تجاوزنا إيغال أبي العلاء في الخيال ـ في ذروة القصيدة الأولى، وكذلك الثانية. فيكون صدق الخبر هو اللحظة التي تصل فيه القصيدتان إلى أقصى حد مؤثر. وتتكرر الدلالة في القصيدتين سوى الألفاظ؛ إذ يقول في الأولى:

مضت، وقد اكتهلتُ فخلتُ أني

رضيع ما بلغتُ مدى الفطام[21]

ويقول في الثانية:

مضت، وكأني مُرْضعٌ، وقد ارتقت

بي السنُّ شكل فوديَّ أشكالُ[22]

---

[20] ديوانه: ٤/١٠٦.
[21] سقط الزند: ٢٧٤.
[22] المصدر نفسه ٣١١.

فالشاعر يطابق الواقع في قوله عن المرثية (مضت) على نحو مكرر في القصيدتين، وهي حقيقة لا يقوى على إنكارها، وفي قوله في الأولى عن حاله: (اكتهلتُ) وفي الثانية: (ارتقت بي السن).

ويعبر عن حالته النفسية في تلك اللحظة عن طريق التشبيه وإن كان في الأولى بليغاً وفي الثانية مرسلاً من حيث الأداة، ومجملاً من حيث وجه الشبه، ولكنه في الحالين واحد؛ ففي الأولى (رضيع) وفي الثانية (مُرْضَع).

فنلحظ أن الشاعرين استطاعا أن يقدما صورة صادقة للخبر من ناحية مطابقته للواقع: دلالياً ونفسياً، لكن أبا الطيب قدم نفسه حكيماً،فسعى إلى التقليل من شأن الموت أو الفراق عن طريق الحكمة. أما أبو العلاء فقدم نفسه طفلاً رضيعاً لا يقوى على العيش بعد فقد أمه.

وعلى الرغم من الاستدراج العاطفي لمثل هذه الصورة، فإن البيئة تطلب من الرجل أن يكون على غرار الصورة التي قدمها أبو الطيب، وهنا تكمن المفاضلة.

المطلب الثاني: رثاء الحبيبة والأب

اذا تجاوزنا رثاء الام او الجدة الذي حسبناه اكثر فروع الرثاء صدقاً؛ فاننا نحسب ان هناك لونا اخر لا يقل عمقاً واثراً في النفس

عنه، الا وهو رثاء الحبيبة –ان صح التعبير – لابي الطيب، ورثاء الاب لابي العلاء؛ ذلك ان ابا الطيب فقد اباه صغيراً، ولم يحتلم بعد.

مطلع قصيدة ابي الطيب جاء (صادق الخبر) من نواحٍ عدة فحقق فيه الشاعر المقصود من التعبير عن الاحساس، والذيوع والانتشار في بيئته، كما في قوله:

يا أخت خير أخ يا بنت خير أبِ

كناية بهما عن أشرف النسبِ[٢٣]

فقد عبر عن المحبة بالنداء المكرر، وحفظ لها مكانتها من شرف النسب فهي أخت، وبنت لخير أخ وخير أب. وقد جرت العادة في البيئة العربية ان لا تسمى المرأة باسمها في الشعر أو غيره، وقد صرح الشاعر بهذه العادة في الشطر الثاني بما يوافق بيئته.

ومن الابيات التي يصور فيها نقل نبأ وفاتها إليه من حلب الى الكوفة بيتان يشكلان محور القصيدة، ويستندان على المعيار الفني (صدق الخبر) وهما قوله [٢٤]:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر

فزعت فيه بامالي الى الكذب

حتى اذا لم يدع صدقه لي أملاً

شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

---

[٢٣] ديوانه: ٨٦/١.

[٢٤] ديوانه. ١ /٨٧_ ٨٨.

فالشاعر حينما نقل اليه الخبر بسرعة، وهو ما يشي به قوله:(طوى الجزيرة) تمنى ان لا يكون ذلك صحيحاً. ولم يكن بيديه شيء يفعله لتكذيب الخبر في نفسه سوى ان يستعير عبارة (فزعت فيه بامالي) وهذا عادة ما يفعله كل محب حينما لا يصدق شيئاً مكروها غير متوقع. فاستطاع ابو الطيب ان يجعل من طريقة تلقيه الخبر غير مقصورة على ذاته، وانما اشرك معه ممن هم على شاكلته من بيئته، حينما ينكرون الخبر السيء للوهلة الاولى؛ لهول الصدمة،وشدة وقعها على النفس.

لكن الشطر الثاني من البيت الثاني احتوى على مبالغة، جعلت الشاعر لا يوفق كثيراً في الوصول الى الدقة المتوخاة في مثل هذا الاسلوب البلاغي (صدق الخبر) ولو انه قال:

حتى اذا لم يدع صدقه لي املاً

اسبلت دمعاً على الا خيار من ذهب

لكان اقرب الى صدق الخبر، ولفظة (الاحباب) أولى من (الاخيار) لكن المقام يأباها؛ لانه يخاطب في هذه القصيدة سيف الدولة وهو اخو المرثية كما هو معلوم. فالتصريح بذلك يخالف ما كان سائداً في البيئة من ايثار الكتمان في هذا المقام. والقول (من ذهب) وان كان يبدو مبالغة لكنها جميلة في مقامها لانها تحمل معنى انه غالٍ.

اما قصيدة ابي العلاء في رثاء أبيه فمطلعها:

نقمت الرضى حتى على ضاحك المُزْن

فلا جادني الا عبوس من الدَّجن[٢٥]

اشرك الشاعر هنا السحاب في الرثاء، وقسمه على قسمين: ضاحك، وعابس. والضاحك منهما ما كان فيه برق، وقد كانت العرب تشبه البرق بالضحك، والمطر بالبكاء؛ فلشدة مصيبة أبي العلاء على نفسه، لا يريد رؤية الا السحاب العابس. وهو ما يشي بالصنعة، والتكلف، والايغال في الخيال، والبعد عن الواقع. وكل ذلك يتناقض و ما يتطلبه (صدق الخبر). الا اذا كانت السماء ملبدة بالغيوم في ساعة انشاء القصيدة. فيكون صدقه مستمداً حينئذٍ من معرفة اللغة وفقهها، وقد يبدو ذلك بعيداً عن ذهن غير المتخصص وربما فات المتخصصين انفسهم.

ويوغل المعري في هذه القصيدة في الخيال ليبدأ رحلة مع والده الى البعث والحساب، وهو ما يذكرنا بما كتبه في (رسالة الغفران) حتى لنجده يكون على النقيض من (صدق الخبر) في مثل قوله:

هنيئاً لك البيت الجديد موسداً

بيمينك فيه بالسعادة واليمن[٢٦]

لكن أبا العلاء يأتي ببيتين يكونان محور القصيدة، يعبران احساسه تجاه ابيه، ويقومان مقام البيت المستقل، الذي يقصد لذاته دون سواه من أبيات القصيدة، ويوظف فيهما الاسلوب البلاغي

[٢٥] سقط الزند: ١٨١.
[٢٦] المصدر نفسه: ١٨٥.

(صدق الخبر).

فيقول:

وإجلال مغناك اجتهاد مقصرٍ

اذا السيف أودى، فالعفاء على الجفن

لقد مسختْ قلبي وفاتُك طائراً

فأقسم ان لا يســتقر على وكـــن[٢٧]

فان إجلال المنــزل بعد وفاة والده لا فائدة من ورائه، وإن كان هذا الأمر متوارث في البيئة، ولتوكيد هذا المعنى أتى بالتشــبيه الضمني، فحال إجلال المنــزل بعد رحيل صاحبه مثل إجلال الغمد بعد ذهاب سيفه؛ فكما أنه في الحالة الثانية لا فائدة منه فهو في الحالــة الأولى كذلك. وقد عبر عن مدى تاثره لفقد والده في البيــت الثــاني فكانه طائر لا يستقر في مكان، وهي صورة تساوي احساس الشاعر بالم الفقد، والحزن، والفراق.

[٢٧] سقط الزند: ١٨٦. والوكن: هو عش الطائر حيث كان، أما الوكر: فهو عش الطائر الذي يبض فيه ويفرخ ينظر لسان العرب:مادة(وكن)ومادة(وكر).

المطلب الثالث: رثاء المناسبات

ليس الباحث هنا في معرض الحديث عن شعر المناسبات، وما قيل حوله ويقال. لكننا نعلم ان الشاعر في هذا المقام يدفع الى القول؛لامر خارج عن رغبته وارادته؛ لكنه يجاري الاخرين في أمور حياتهم. ولكي يكون الشاعر مبدعا في مقام الرثاء لا بد ان يجعل من المناسبة حديثاً عن النفس، وهمومها. فان كان الشاعر حزينا متشائماً وجد في الرثاء ميدان فسيحاً للتعبير عن ذلك.

ويبدو ان الشاعرين قد ذهبا الى هذه الطريق. اعني الحديث عن عموميات الحياة والموت، وبث التشاؤم في موقفهما من الحياة.

وقد استطاع ابو الطيب ان يحقق (صدق الخبر) في مطالع بعض القصائد على نحو يتثير القاريء، ويجعله يحس بقوة الصورة وصدقها، على غرار قوله في رثاء عمة سيف الدولة الحمداني:

نعد المشرفية والعوالي

وتقتلنا المنون بلا قتال

ونرتبط السوابق مقربات

وما ينجين من خبب الليالي[٢٨]

فقد لفت انتباه السامع الى امور واقعية لم يكن يحسن تجميعها

[٢٨] **ديوانه: ٣/٨.**

على نحو ما جمعها ابو الطيب، وقدمها اليه مصوراً ضعف الانسان امام قدر الله سبحانه وتعالى. فان اعداد السيوف والرماح – ان كان مطلوباً في الحروب – فهو لايقف حائلاً عن الموت. وربط الخيول السريعة قرب المنزل – ان كان ينجي في الحروب – فانه لاينجي من الموت اذا نزل.

فقد دخل مثل هذا الحديث العام في باب الحكمة، اي ان (صدق الخبر) يكون قد وصل الى اقصى حد يمكن ان يبلغه.

لكن الشاعر حينما تحول الى رثاء المرثية اخفق في اختيار الصورة الصادقة من الناحيتين: الدلالية، والنفسية.على نحو ما اثير من حديث حول بيته الذي يقول فيه:

صلاة الله خالقنا حنوطٌ. على الوجه المكفن بالجمال[٢٩]

وهو حديث نحسبة صحيحا اذا ما نظرنا اليه بالمعيار الفني (صدق الخبر) ويقدم ابو الطيب في بعض القصائد صورا تقليدية بالعودة الى المرجعية الدينية على نحو قوله في رثاء (محمد بن اسحاق التنوخي):

اني لأعلم، واللبيب خبير

ان الحياة – وان حرصت – غرور[٣٠]

فهذا البيت يدخل في باب الحكمة، وقد كرر القران الكريم صورة

---

[٢٩] ديوانه:١٢/٣.

[٣٠] المصدر نفسه: ١٢٨/٢.

الحياة مشبهة بالغرور في اكثر من موضع من مثل قوله تعالى (وما الحياة الدنيا الإمتاع الغرور) ال عمران/١٨٥.

ولكن الشاعر حينما يأتي على رثائه نجده يجنح الى المبالغة بما ينفي عنه (صدق الخبر). حتى ان ابا الطيب قد رثاه في اثني عشر بيتا ثم استزاده بنو عم المرثي، فزاد على القصيدة تسعة ابيات. مما يؤيد عدم توافر تجربة حقيقية للرثاء.

لكن غاية مابلغة ابو الطيب في هذا المقام، هو ماقاله في رثاء عبد لسيف الدولة الحمداني يدعى (يماك التركي) اذ يقول فيه.

واني وان كان الدفين حبيبه

حبيب الى قلبي حبيب حبيبي[٣١]

قد يكون في الشطر الثاني من البيت حكمة مستمدة من القول (عدو عدوي صديقي) مع الفارق الملحوظ في قلب المعنى، وقد نتقبل من ابي الطيب هذا الاستقراء، وهذه النتيجة؛ اذا جعلنا الشطر الثاني مستقلا قائما بذاته ولكن لايمكننا ان ندرجه في سياق قصيدة رثاء فلا يحرك ابا الطيب شيئ نحو المرثي سوى انه عبد حبيب الى سيف الدولة فمثل هذا البيت واضرابه لايقبل في الرثاء.

ويكاد ابو العلاء ان يسلك الطريق نفسها التي سلكها ابو الطيب ففي رثائه لابي ابراهيم العلوي نجده مدفوعا الى القول، لاراغبا

[٣١] المصدر نفسه: ٤٩/١.

فيه،يشي بذلك قوله في المطلع:

بني الحسب الوضاح والشرف الجم

لساني ان لم ارث والدكم خصمي[٣٢]

وحينما يرثي (جعفر بن علي بن المهذب) نجده يستهل الرثاء بمطلع في الحكمة في بيتين فيقول:

احسن بالواجد من وجده

صبر يعيد النار في زنده

ومن أبى في الرزء غير الاسى

كان بكاه منتهى جهده[٣٣]

ولانعلم رزئا يكون بغير اسى، ولكن من يصاب بالرزء قد يبكي،وقد لايبكي فكان الاولى ان يقول (البكا) وكلا اللفظتين يقوم بهما الوزن. ولست اعلم جهدا يبذل في البكاء، وانما يمكن ان يكون له حد على سبيل الاستعارة فلو استبدل ابو العلاء ببيته البيت الاتي:

ومن أبى في الرزء غير البكا

كان بكاه منتهى حـــــــــده

ولعل أبا العلاء أراد هذا المعنى الذي اثبتناه فخانته اللغة من حيث لم يحتسب وربما كان الاصح قولنا: خانته المشاعر لافتقادها الى الصدق في الإحساس والعمق في التجربة الشعرية.

---

[٣٢] سقط الزند: ١٨٩.

[٣٣] المصدر نفسه: ٢٠٥.

اما قصيدته في رثاء الفقيه الحنبلي؛ فهي من القصائد المشهورة التي كانت مثار اهتمام النقاد والادباء ومازالت، ومطلعها:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولاترنم شاد[٣٤]

معبرا عن تشاؤمه تجاه الحياة، وموقفه من الموت، وربما كانت لفظة (ملتي) نابية عن موضعها؛ فان الملة هي الدين وليس الشاعر في معرض الحديث عن الدين، وانما يتحدث عن خاطر اعتمل في نفسه في لحظة تشاؤمية. فكان الاولى ان يقول (خاطري) وهي لفظة يقوم بها الوزن وتصيب المعنى. اذا ما اراد ان يعبر عن حالته النفسية اليائسة على نحو يقربه من (صدق الخبر).

ومعلوم ان المساواة بين المتناقضات على نحو ما جاء في هذه القصيدة يشي بحالة الياس التي كان عليها وهو امر لايرتضيه الدين،الذي يسعى بالانسان الى تحقيق السعادة في الحياة، ويكفل له الاستمرار على العمل فيها.

فكانت شهرة القصيدة متاتية من موقفها من الحياة والموت على نحو فلسفي، يربط بين المتناقضات؛ ليثير في النفس الشك، والقلق، والحيرة عن مصير الانسان الذي لامفر منه.

اما غايه ما وصل اليه الشاعر في رثائه فهو قوله:

ودعا ايها الحفيان ذاك الـــــ شخص ان الوداع ايسر زاد

[٣٤] المصدر نفسه: ١٩٦.

واغسلاه بالدمع – ان كان طهرا – وادفناه بين الحشا والفؤاد[٣٥]

ومما يبدو ان الشاعر قد ابتعد عن(صدق الخبر) في هذين البيتين.

فقوله (ان الوداع ايسر زاد) لاينسجم مع الحاله التي كان عليها من الم الوداع وشدته، ومايثير في النفس من احساس بالفراق. فكان الاولى ان يقول:

(اعسر زاد) ذاك ان الوداع ان كان زادا فانه عسير على الهضم لاتتقبله النفس لما يترك فيها من الم. وقوله (ان كان طهرا) لم يحدد فيه موقفه تجاه المرثي بل انه قلل من شان المرثي في مقام كان ينبغي عليه ان يحدد من مشاعره تجاهه. وجرت العادة ان يكون دفن الميت في الفؤاد؛ ذاك انه الموضع الذي ان صلح صلح سائر الجسد وان فسد فسد الجسد كله وكما قال الشاعر في رثاء ابنه:

فكأن قلبي قبره وكأنه في طيه سر من الأسرار[٣٦]

مما يشي في بيتي المعري بالتكلف والصنعة، والابتعاد عن الصدق، فضلا عن تقصير اللغة في ايصال المعنى الذي يريده الشاعر لابتعاده عن الصدق في المشاعر نفسها.

[٣٥] سقط الزند: ٢٠٠.

[٣٦] شعراء الواحدة / نعمان ماهر الكنعاني: ٦٥.

خلاصة ونتائج

لعل خير ما نتم به هذا البحث خلاصة نوجز فيها أهم نتائجه، وعلى النحو آلاتي:

ينبغي على الباحث في البلاغة العربية أن يوجه عنايته إلى ما يكون له عوناً في طريقة الصياغة، والتعبير، وتشكيل الصورة. ويتجلى ذلك في (صدق الخبر) بالبحث في الناحيتين البلاغية والأدبية أي في الجانب الدلالي، والجانب النفسي.

يرى الباحث أن لفظة (الخارج) الواردة في تعريف الخبر يتحقق مدلولها عن طريق الدقة في التعبير عن الواقع النفسي للقائل، والواقع البيئي لمجتمعه. ولقد تباينت صورة الليل في شعر بشار بن برد على أساس هذين العاملين.

يبدو أن أقرب الأغراض الشعرية إلى صدق الخبر هو الحكمة وتتفاوت بعد ذلك الأغراض الشعرية مثل الرثاء، والغزل، والمديح والفخر، والهجاء.على أن المعيار في ذلك أسلوب الشاعر نفسه لأنه هو الذي يحدد أي الأغراض أكثر صدقاً في الخبر من غيرها.

صدق الخبر لدى أبي الطيب،وأبي العلاء في رثاء الأم من الناحيتين النفسية،والدلالية. وقد كانت صورة أبي الطيب رجلاً حكيماً في حين كانت صورة أبي العلاء طفلا رضيعا، أي أن صورة أبي الطيب اقرب إلى واقع البيئة العربية الإسلامية في معتقداتها،وأعرافها،وتقاليدها.

صدق الخبر في رثاء أبي الطيب لأخت سيف الدولة الحمداني بوصفها حبيبة من الناحية النفسية، وكان دون ذلك بقليل من الناحية الدلالية، لما جاء فيه من مبالغة تعارض الواقع، وأوغل أبو العلاء في الخيال في رثاء أبيه مما أبعده عن صدق الخبر، لكنه افلح في بيتين في وسط القصيدة من الناحية النفسية، والدلالية.

لجأ الشاعران إلى تصوير موقفيهما من الحياة والموت على نحو متشائم في رثاء المناسبات، وتفاوت صدق الخبر عن المرثي بين الشاعرين. وقد أسعف أبا الطيب مهارته الفنية، وتمكنه من اللغة وحسن قراءته للواقع النفسي، والبيئي. فكان الأقرب منهما إلى الصدق الخبر.

المصادر والمراجع

الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت٧٣٨هـ) راجعه وصححه الشيخ بهيج غزاوي، دار أحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.

برد الأكباد عند فقد الأولاد/ابن ناصر الدين الدمشقي (ت٨٤٢هـ)، تحقيق عادل بن عبد الله السعيدان، مكتبة ابن الجوزي، مصر،ط١ ،١٩٩٨م.

البلاغة والتطبيق/ د.احمد مطلوب، د.حسين البصير،دار الشؤون الثقافية،بغداد،ط٢ ١٩٩٩ م.

جواهر البلاغة/ احمد الهاشمي،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠١م.

ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بـ ((البيان في شرح الديوان))، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الابياري،عبد الحفيظ شبلي، دار الفكر، بيروت ٢٠٠٣م.

ديوان بشار بن برد، شرح محمد طاهر، ومحمد رفعت، ومحمد شوقي، مطبعة لجنة التأليف، والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٥٤م.

الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢،١٩٥٥م.

رثاء الأموات، النويري، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، مكتبة الأيمان، مصر،٢٠٠٣م.

سقط الزند، ابوالعلاء المعري، تحقيق: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٩٩٠ م.

شعراء الواحدة/ نعمان ماهر الكنعاني، مكتبة النقاء، بغداد، ط٢، ١٩٨٥.

صحيح الامام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) تحقيق د مصطفى اديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ١٩٨٧.

صحيح الامام مسلم، (ت٢٦١) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، (دت).

الصدق الفني في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري،د.عبد الهادي خضير نيشان دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٧م.

طبقات الشعراء،ابن المعتز(ت٢٩٦هـ)،تحقيق:د.عبد الستار احمد فراج، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٨١م.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده/ ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة مصر، ط٣ ، ١٩٦٤م.

الفن ومذاهبه في الشعر العربي/ د.شوقي حنيف، دار المعارف،مصر، ط١ ١٩٧٨م.